الفجوة بين جانبي الأطلسي (١)

أوروبا والنظام العالمي الجديد

١

شهد العالم بعد سقوط النظام الاشتراكي حقبة جديدة جرى التبشير بها تحت عنوان: النظام العالمي الجديد. وهي الحقبة التي سماها الكاتب الأمريكي – الياباني الأصل – فوكوياما «نهاية التاريخ وخاتم البشر» وشرحها في كتابه الذي حمل هذا العنوان، انطلاقاً أو تأسيساً على النصر الحاسم الذي حققه النظام الليبرالي الغربي على النظام الاشتراكي / الشيوعي الذي شكل في عصر ما بعد الحرب العالمية الثانية الشق الثاني من الحضارة الأوروبية.

وغني عن البيان أن غياب الاتحاد السوفياتي الذي قاد الكتلة الاشتراكية أو المعسكر الشيوعي فسح المجال أمام الولايات المتحدة الأمريكية لتقود النظام العالمي الجديد، ومن ثم لتنفرد بمحاولة رسم ملامح هذا النظام وترتيب أوضاعه. والأمر الجديد والجدير بالتأمل في هذا السياق أن الولايات المتحدة تحاول هذه القيادة أو تمارسها من خلال الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي. ومن هنا جاء حرص الرئيس الأمريكي السابق

جورج بوش على أن يزف هذا النظام العالمي الجديد رسمياً في الاجتماع الذي عقده مجلس الأمن بمقر الأمم المتحدة في نيويورك بتاريخ ٣١ كانون الثاني / يناير ١٩٩٢ وذلك لأول مرة على مستوى رؤساء الدول والحكومات؛ والذي انتهى بإجماع هؤلاء الزعماء إلى الترحيب بنهاية الحرب الباردة، وببزوغ فجر جديد يبشرنا بأمم متحدة أكثر قوة. بالإضافة إلى اتفاق هؤلاء الزعماء على العمل من أجل تفكيك الترسانة النووية في العالم! ويمكن الرجوع إلى «نص إعلان القمة» الصادر عن الاجتماع المذكور لمعرفة تفصيلات أكثر عن ملامح النظام العالمي الجديد، علماً بأن بعض المراقبين السياسيين لخص هذه الملامح بالالتزام بالأمن الجماعي والدبلوماسية الوقائية. هذا مع التجاوز عن بعض الكلمات والشعارات التي يمكننا وصفها بكل بساطة بأنها كاذبة، مثل ما جاء على لسان الرئيس الفرنسي السابق فرانسوا ميتران في كلمته التي ألقاها أمام المجلس حين قال: إن شريعة الغاب قد انتهت. لأننا نقول: إذا كان ميتران أول من مارس أو سهّل وأغضى عن هذه الشريعة في البوسنة، فإن هذه الشريعة لم تنته، ولكنها بدأت مع ولادة النظام العالمي الجديد عصراً جديداً ربما كتب التاريخ في يوم من الأيام أنه كان أسوأ وأخطر من أي عصر سابق، لأنه جاء «مقنعا» بقناع هيئة الأمم المتحدة ومتسلحاً بدعاوى الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان.. ومسكينة هذه الأمم المتحدة وإن شئت قلت: المتفرقة، أو المتحدة بسياط الأمم الكبرى،

وبمصالحها. ويكفي أن نتذكر أن هذه الأمم أو الدول والحكومات يحكم عليها مجلس الأمن، أو دولة واحدة من دوله الخمس.. التي تتمتع بحق النقض «الڤيتو». وهي الدول المنتصرة في الحرب العالمية الثانية.

٢

ويشير تسلسل الأحداث إلى أن الولايات المتحدة كانت تعد نفسها لمثل هذا الدور من زمن طويل، حتى إذا وصلت إليه في أعقاب تفكك الاتحاد السوفييتي بدأت بتسويقه عبر الجمعية العامة للأمم المتحدة أولاً، ثم عبر مجلس أمنها العتيد! فقد سبق للرئيس الأمريكي بوش أن بشّر بهذا الوضع يوم ختم خطابه المهم والتاريخي أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في شهر تشرين الأول / أكتوبر عام ١٩٩١ بقوله: «إن أمريكا لا ترغب بالسيطرة على العالم، ولكنها في الوقت نفسه لن تتراجع وتنسحب إلى العزلة. وأنها سوف تقدم الصداقة والقيادة».

وقد لا تحتاج هذه الكلمات إلى شرح بعد أن صدّقتها الأحداث أو بعد أن أخذت طريقها إلى الترجمة على أرض الواقع. وليس من مهمتنا أن نؤرخ في هذا السياق للسياسة الأمريكية التي نجحت في التعجيل بانهيار النظام الشيوعي – أقول «التعجيل» لأننا نعتقد أن العوامل الأساسية لهذا الانهيار داخلية وليست خارجية، أي أنها تكمن في النظام ذاته بغض النظر عن أية عوامل مساعدة أخرى – ونكتفي فقط بالإشارة إلى عناصر

هذه السياسة التي نجحت في هذا التعجيل. هذه العناصر هي: الاحتواء، وتصعيد الحرب الباردة، والانفراج الدولي.

في تموز / يوليو ١٩٩٠ كتب المعلق كريستوفر لاش في جريدة نيويورك تايمز مقالاً جاء فيه: «في عام ١٩٤٧ أمّل جورج كينان بأن سياسة احتواء المد الشيوعي إذا ما اتبعت بقوة لعدة عقود ستؤدي إلى انهيار القوة السوفياتية أو تفككها التدريجي» قلت: وقد ترجمت هذه السياسة بتحالفات سياسية ومعونات وبرامج اقتصادية وبموقف خاص أو سياسة مغايرة مع الصين الشعبية.. الخ.

أما تصعيد الحرب الباردة أو سياسة حافّة الهاوية ولعبة الانفراج الدولي فقد شهد جيلنا ذروتها على يد وزير الخارجية الأمريكية الأشهر – ربما في هذا القرن – جون فوستر دالاس وكانت قاعدة هذه السياسة تطويق الاتحاد السوفياتي بقواعد عسكرية أميركية مزودة بأحدث وأسرع الطائرات – وكانت هذه الاستراتيجية قبل أن تتمكن الولايات المتحدة فيما بعد من دخول عصر الصواريخ العابرة للقارات – بالإضافة إلى اختلاق الأزمات وتصعيد المواقف والتصريحات حتى كأن الحرب باتت على الأبواب، وأن العالم بأسره بات على حافة الهاوية! الأمر الذي يحمل الاتحاد السوفيتي أو الطرف الآخر على التنازل أو التسليم بالأمر الواقع. ونشير في هذا السياق إلى تصريح جون فوستر دالاس الذي أشار فيه إلى سياسته في إدارة

الأزمات أو سياسته بوجه عام، حيث قال إنه «يخلق» المشكلات في العالم، ثم يحلّها لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، كما نشير إلى تنقله الدائم بين عواصم دول العالم حتى إن بعض الصحف الأمريكية دأبت على وصف وجوده في واشنطن بأنه زيارة.

بتاريخ ١٣ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩١ كتب المعلق العربي فؤاد زيدان يقول: «وبينما كان الانفراج أحد وسائل تدعيم تماسك المعسكر الغربي وفتح ثغرات لاختراق المعسكر المضاد كان تصعيد الحرب الباردة هو العلاج لكل استرخاء أو شرخ في المعسكر الغربي، وهو الرد السريع ضد كل محاولة سوفييتية لالتقاط الأنفاس أو توسيع مناطق النفوذ» وأضاف: «وكانت آخر الجولات التي قادها اليمين الأمريكي المتطرف بزعامة ريجان وبوش، والتي كان واضحاً فيها أن الولايات المتحدة مصممة على تحقيق النصر بالحرب الباردة ولو من خلال سباق للتسلح يتجاوز كل الحدود، ومن خلال تصعيد للصراع الى المدى الذي وصل بالأمور إلى تجاوز قواعد لعبة حافة الهاوية، وإلى تقسيم العالم بين شر مطلق «إمبراطورية الشر» يقابلها الخير المطلق. وعند هذه النقطة لم يعد الاتحاد السوفييتي ونظامه وإمكانياته قادرين على الاستمرار في الصراع. وتحقق النصر في عهد جورج بوش الذي منح ميخائيل جورباتشوف فرصة القيام بإدارة عملية تفكيك آخر

الإمبراطوريات التي كانت قد بقيت العقبة الوحيدة الحائلة دون تربع الولايات المتحدة منفردة في قمة الزعامة العالمية».

٣

والآن بعد أن انفردت الولايات المتحدة بالقيادة، وبعد أن دخل العالم فيما يمكن تسميته بعصر ما بعد الاشتراكية، مقارنة بعصر ما بعد الحرب العالمية الثانية الذي تمتعت فيه الماركسية بوصفها من أزياء الفكر الأوروبي ببعض البريق، من جهة. والذي شهد خلال سنوات قلائل نهاية العصر الاستعماري – الغربي – من جهة أخرى. وبغض النظر في جميع الأحوال عن فكرة أو طرفة نهاية العالم التي أطلقها فوكوياما في كتابه الذي أشرنا إليه.

أقول: يبدو الآن أن العلاقات بين الولايات المتحدة وأوروبا مرشحة لزيادة الفتور، وأن «الفجوة بين جانبي الأطلسي مرشحة للاتساع».

كتب ديفيد لاوي في جريدة «يو إس نيوز» تحت العنوان المذكور ما يلي: «وحين يختفي التهديد الشيوعي في أوروبا، وتجعل أوروبا الغربية التي تتنامى فيها الميول نحو الفيدرالية باستمرار الدفاع المستقل أحد أهدافها، فما هو الدور المتبقي للولايات المتحدة في أوروبا بعد أن ظلت تقوم بدور الزعيم والحارس والممرض والشرطي في أوروبا الغربية منذ عام ١٩٤٥. تواجه الولايات المتحدة الآن مستقبلاً ستكون فيه

مجرد شريك عادي. صحيح أنها ستبقى الرئيس الشرفي – والنووي – للغرب، ولكن كما يقول دومينيك مويزي من معهد العلاقات الدولية في فرنسا فإن تداعي الحواجز الفاصلة بين شقي أوروبا وانتهاء الحرب الباردة وسّعا الشقة بين جانبي الأطلسي «فأخذت الولايات المتحدة تبدو أكثر بعداً عن أوروبا، والعكس صحيح. إذ كانت فكرة كون المرء أوروبياً وكونه غربياً تعنيان نفس الشيء لأن الخطر كان نفسه، ولكن الآن هناك اختلاف».

قلت: وليس معنى ذلك أن أوروبا تتطلع إلى منافسة الولايات المتحدة، ولكنها تطمع في أن تكون شريكاً لها ولو في هذه المرحلة على الأقل. وعلينا أن نفسّر أي هجوم أوروبي على الولايات المتحدة، أو تعريض سياسي أو اقتصادي أو ثقافي بها على أنه تعبير عن الرغبة في المشاركة لا في المنافسة. أو أنه ليس من باب المحاربة والإقصاء، ولكن من باب الرغبة في الدفاع عن النفس على أقل تقدير.

ومنذ بضعة أيام (بتاريخ ١٩٩٦/١/١٩) قال الرئيس الفرنسي جاك شيراك خلال زيارته لليابان التي استمرت ستة أيام: «إن اليورو – العملة الموحدة الأوروبية – سيتحدى الدولار يوماً ما كعملة عالمية» وأضاف مخاطباً مجموعة من كبار رجال الأعمال في طوكيو: «بصراحة لقد عانينا من تذبذبات الدولار التي لا تعكس دائماً الواقع الاقتصادي.

ونحن بحاجة لعملة اليورو قوية بدرجة تسمح لنا بأن نقاوم هذه التذبذبات الشاذة في الدولار».

والسؤال الآن: هل نحن العرب والمسلمين معنيون بهذه الفجوة بين جانبي الأطلسي؟ والجواب نعم بكل تأكيد. إننا نأتي في مقدمة الشعوب والأمم المعنية ببقاء هذه الفجوة، كما أننا معنيون باتساعها يوماً بعد يوم. ومن تحصيل الحاصل أن نقول أو نضيف: بشرط ألا تكون سياساتنا الاقتصادية والثقافية وسواها واقعة في قبضة أي جانب من هذين الجانبين الأوروبي والأمريكي، لأن أياً منهما لن يحسب لنا في هذه الحال أي حساب.

وغني عن البيان أن العالم العربي والإسلامي مع ما يعانيه من الفرقة والتشرذم، وغياب الشورى والديمقراطية وحقوق الإنسان، وما أفرزه ذلك من علاقات مضطربة بين الأنظمة والشعوب، بلغت إلى حد التصادم في بعض البلاد، لن يكون في وسعه أن «يوظف» هذه الفجوة أو يفيد منها ولو في أقل الهوامش المتاحة كما يقال. بل على العكس من ذلك ستكون شعوبه ومقدراته رهن التجاذب و«التوظيف».. وكأننا عدنا من جديد إلى عصر الحرب الباردة على نحو أسوأ مما كنا عليه بكثير.. لأن وتيرة الخلاف بين جانبي الأطلسي، مهما ارتفعت أو شقته مهما اتسعت، فإنها لن تصل إلى ما كانت عليه بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة في العصر المذكور.